

أثر السياق في تحديد دلالة المشترك اللفظي في القرآن الكريم

زكرياء بسباسي

جامعة تلمسان

مقدمة:

تعتبر دلالة السياق واحدة من أهم دلالات فهم النص القرآني، ووجهها من الوجوه الكاشفة عن معانيه الصحيحة، ومرجعاً دلالياً يفضي إلى الكشف عن المقاصد القرآنية من الألفاظ والتراكيب التي حواها القرآن الكريم، وقد اعتنى المفسرون بدلالة السياق أيما عناية، فقد جعله الشاطبي من العلوم والقرائن التي لا غنى لمفسر كتاب الله تعالى عنها، حيث قال: "فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذلك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف، فإن فرق النظر في أجزائه؛ فلا يتوصل به إلى مراده، ولا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض"⁽¹⁾، وورد اختيار بناء ألفاظ القرآن الكريم روعة في التماسك، ودقة في التصوير، ومن ذلك ما سماه علماء اللغة بالمشترك اللفظي، واصطلح على تسميته في علوم القرآن بالوجوه والنظائر، وأولوه عناية خاصة، فقاموا بجمع ألفاظه في مصنفات خاصة، كما بحثوا في مسأله، ووضحوا مفهومه، واعتبروه من وسائل التوسع في معاني القرآن الكريم؛ حيث لا مجال لتنازع أكثر من معنى للفظ الواحد، وهذا من أسرار إعجاز القرآن الكريم في ألفاظه، وقد ذكر المفسرون أن من بين أسباب الاختلاف في تفسير آيات القرآن ظاهرة المشترك اللفظي، يقول ابن تيمية مبينا ذلك: "ومن التنازع الموجود عندهم ما يكون فيه محتملا للأمرين، إما لكونه مشتركا في اللفظ، كلفظ قسورة الذي يراد به الرامي، ويراد به الأسد، ولفظ عسعس الذي يراد به إقبال الليل وإدباره..."⁽²⁾، ونظرا لما للسياق من خصوصية في النص القرآني، فإننا نحاول في هذا البحث أن نرصد أهمية السياق في تحديد المقصود من المفردات التي تعد دلالاتها في القرآن الكريم، واقتضت

طبيعة البحث أن يكون قائما على التحرير والمناقشة. نظرا لكثرة المشترك اللفظي في القرآن الكريم. من خلال الاعتماد على التفاسير.

. تمهيد:

تعريف السياق لغة:

السياق لغة: من سوق، وأصله سِوَاق، فقلبت الواو ياءً لكسرة السين، وهما مصدران من ساق يسوق⁽³⁾، وقال ابن فارس: "السين والواو والقاف: أصل واحد، وهو حَدُّ الشَّيْءِ، يقال: ساقه يسوقه سَوْقًا"⁽⁴⁾، وفي المعجم الوسيط "ساق الله إليك خيرا ونحوه بعثه إليه وأرسله، وساق الحديث، سرده وسلسله... وساقه: تابعه وسايره وجاراه، وتساوقت الماشية، ونحوها: تتابعت وتزاحمت في السير، وتساوق الشيطان: تسائرا أو تقارنا، ويقال: ولدت المرأة ثلاثة ذكور ساقاً على ساقٍ أي: بعضهم في إثر بعض، ليس بينهم أنثى، وسيق الكلام: تتابعه، وأسلوبه الذي يجري عليه"⁽⁵⁾، وبهذا يتبين لنا أن معنى السياق في المعجم يدور حول التتابع، والسير، والاتصال.

اصطلاحاً:

لقد بحث اللغويون العرب في مصطلح السياق وما يرادفه من الكلمات، ولخص الدكتور ردة الله الطلحي مفهوم السياق في التراث العربي في النقاط الثلاث⁽⁶⁾ التالية:

الأولى: أن السياق هو الغرض: أي مقصود المتكلم من إيراد الكلام، وهو واحد من المفاهيم التي عبر بلفظ السياق (السوق) عنها، وكان استعمالها بهذا منضبطاً عند الأصوليين

الثانية: أن السياق هو الظروف والمواقف والأحداث التي ورد فيها النص، أو نزل أو قيل بشأنها، وأوضح ما عبر به عن هذا المفهوم لفظاً الحال والمقام.

الثالثة: أن السياق هو ما يعرف الآن بالسياق اللغوي الذي يمثله الكلام في موضع النظر أو التحليل، ويشمل ما يسبق أو يلحق به من كلام يمكن أن يضئ دلالة القدر منه (موضع التحليل) أو يجعل منها وجهاً استدلالياً.

وجاء تعريف السياق عند الغريبين بأنه واحد من اثنين: أولاً: السياق اللغوي، وهو ما يسبق الكلمة، وما يليها من كلمات أخرى، وثانياً: السياق غير اللغوي: أي الظروف الخارجية عن اللغة التي يرد فيها الكلام"، وبتعبير آخر فإن السياق اللغوي يشمل مجموعة قرائن التعليق المقالية، سواء أكانت قرائن معنوية أم لفظية، وأما سياق الموقف فيشمل مجموعة العناصر المقامية التي تتصل بالحدث اللغوي، فالسياقان يتكاملان للوصول إلى المعنى في صورته الشاملة⁽⁷⁾، ويرى هاليداي أن السياق هو النص الآخر، أو النص المصاحب للنص الظاهر، وهو بمثابة الجسر الذي يربط التمثيل اللغوي ببيئته الخارجية⁽⁸⁾.

. تعريف المشترك:

لغة: يعني المخالطة والمقارنة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ [سورة طه: الآية: 32]، ويقال: اشتركتنا بمعنى تشاركنا، وشارك أحدهما الآخر، وشاركت فلانا في الشيء، إذا صرت شريكه، ومنه فريضة مشتركة يستوي فيها المقتسمون، وطريق مشترك يستوي فيه الناس، واسم مشترك تشترك فيه معان كثيرة⁽⁹⁾، وقال ابن سيده: "هو ما كان ولغيرك فيه حصة، يقال: طريق مشترك، أي: يستوي فيه الناس"⁽¹⁰⁾.

اصطلاحاً: للمشارك اللفظي تعريفات عديدة منها ما اختاره سيبويه في قوله: "اعلم أنّ من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفق اللفظين واختلاف المعنيين"⁽¹¹⁾، وعرفه الغزالي بأنه: "اللفظ الواحد الذي يطلق على موجودات مختلفة بالحد والحقيقة إطلاقاً متساوياً كالعين تطلق على العين الباصرة، وينبوع الماء، وقرص الشمس، وهذه مختلفة الحدود والحقائق"⁽¹²⁾، وحده السيوطي ناقلاً عن ابن فارس في فقه اللغة بأنه "اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة"⁽¹³⁾، وورد مصطلح المشترك اللفظي في علوم القرآن باسم الوجوه والنظائر، قال الزركشي: "اللَّفْظُ الْمُشْتَرِكُ الَّذِي يُسْتَعْمَلُ فِي عِدَّةٍ مَعَانٍ"⁽¹⁴⁾.

وعرفه ابن الجوزي فقال: "واعلم أن معنى الوجوه والنظائر أن تكون الكلمة واحدة ذكرت في مواضع من القرآن على لفظ واحد، وحركة واحدة، وأريد بكل مكان معنى غير الآخر، فلفظ كل كلمة ذكرت نظير لفظ الكلمة المذكورة في الموضع الآخر، وتفسير كل كلمة بمعنى غير معنى الآخر هو الوجوه، إذن: النظائر اسم للألفاظ، والوجوه اسم للمعاني، فهذا الأصل في وضع كتب الوجوه والنظائر، والذي أَرَادَ الْعُلَمَاءُ بِوَضْعِ كِتَابِ الْوُجُوهِ وَالنَّظَائِرِ أَنْ يَعْرِفُوا السَّمْعَ لَهُدَيْهِ النَّظَائِرِ أَنْ مَعَانِيهَا تَخْتَلِفُ وَأَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ بِهَذِهِ اللَّفْظَةِ مَا أُرِيدَ بِالْأُخْرَى" (15)، ومن عرفه من المحدثين علي عبد الواحد وافي، فقال: "بأن يكون للكلمة الواحدة عدة معانٍ تطلق على كل منها على طريق الحقيقة لا المجاز" (16).

المبحث الأول:

عوامل نشأة المشترك اللفظي، وموقف اللغويين منه:

يرجع اللغويون نشأة المشترك اللفظي في اللغة إلى عدة عوامل، لخصها الدكتور رمضان عبد التواب في أربعة نقاط (17):

. الاستعمال المجازي: أي المعنى الموضوع له يسمى معنىً حقيقياً والمعنى المستعمل فيه يسمى معنىً مجازياً، والاستعمال حينئذٍ يسمى استعمالاً مجازياً، فكلمة العين مثلا تدل في الأصل على عضو الإبصار في الإنسان والحيوان، بدليل مقارنة اللغات السامية المختلفة، أم العربية ففيها زيادة على هذا المعنى: الإصابة بالعين، وضرب الرجل في عينه، والمعاناة، والجاسوس، وعين الماء...
. اللهجات: ووضح ابن السراج هذا العامل بقوله: "الذي يوجبه النظر، على كل واضح لغة، أن يخص كل معنى بلفظ؛ لأن الأسماء إنما جعلت لتدل على المعاني، فحقها أن تختلف كاختلاف المعاني، ومحال أن يصطلح أهل اللغة على ما يلبس دون ما يوضح، وهذا ادعاء من ادعى أنه ليس في لغة العرب لفظتان متفتتان في الحروف، إلا لمعنى واحد، لكنه أغفل أن الحي أو القبيلة، ربما انفرد القوم منهم بلغة، ليس سائر العرب عليها، فيوافق اللفظ في لغة قوم، وهم يريدون معنى لفظ آخر من لغة آخرين، وهم يريدون معنى آخر. ثم ربما اختلطت اللغات فاستعمل هؤلاء لغة هؤلاء،

وهؤلاء لغة هؤلاء. فأصل اللغة قد وضعت على بيان وإخلاص، لكل معنى لفظ ينفرد به، إلا أنه دخل اللبس، من حيث لم يقصد⁽¹⁸⁾.

. اقتراض الألفاظ من اللغات المختلفة: إذ ربما تكون اللفظة المقترضة تشبه في لفظها كلمة عربية، لكنها ذات دلالة مختلفة، كما لو تصورنا أن العربية، استعارت من الألمانية كلمة kalb (كلب) بمعنى (عجل)، فتصبح كلمة (كلب) في العربية من كلمات المشترك اللفظي، تدل على الكلب الذي نعرفه، وعلى العجل.

. التطور اللغوي: فقد تكون هناك كلمتان، كانتا في الأصل مختلفتي الصورة والمعنى، ثم حدث تطور في بعض أصوات إحداها فاتفقت لذلك مع الأخرى في أصواتها، وهكذا أصبحت الصورة التي اتحدت أخيراً، مختلفة المعنى، أي صارت لفظاً واحدة مشتركة بين معنيين أو أكثر، مثال ذلك ما روته المعاجم، من (أن حنك الغراب) هو باطن أعلى الفم من داخل، و(حنك الغراب) هو شدة سواده، فإنه مما لا شك فيه، أن (الحنك) بالمعنى الثاني، متطورة عن الحنك بمعنى: شدة السواد؛ قلبت فيها اللام نونا، كما أبدلت في مثل: إسماعيل وإسماعين، وإسرائيل وإسرائيلين، وجبريل وجبرين، وغير ذلك⁽¹⁹⁾.

واختلف اللغويون في مسألة ورود المشترك اللفظي في اللغة العربية، فأنكره فريق منهم ثعلب، والأزهري، والبلخي⁽²⁰⁾، وجعلوا إطلاق اللفظ في أحد معانيه حقيقة، وفي المعاني الأخرى مجازاً، وقالوا إن هناك معنى واحداً حقيقياً، والمعاني الأخرى ضرب من المجاز؛ لأنه عندهم سبيل إلى الغموض والإيهام فقاموا بتأويله، فاعتبروا وجوده دليلاً على ضعف اللغة، وعدم قدرة رصيدها المعجمي على التعبير عن كل المعاني والأفكار، لذلك يجب تنزيه اللغة عنه، يقول ابن درستويه: "فلو جاز وضع لفظ واحد للدلالة على معنيين مختلفين، لما كان ذلك إبانة، بل تعمية وتغطية، ولكن قد يجيء الشيء النادر من هذا لعل... وإنما يجيء ذلك في لغتين متباينتين، أو لحذف

واختصار قد وقع في الكلام، حتى اشتبه اللفظان، وخفي ذلك على السامع، وتأول فيه الخطأ⁽²¹⁾، وإلى مثل هذا ذهب أبو علي الفارسي، وقال بأن اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ينبغي أن لا يكون قصدا في الوضع، ولا أصلا، ولكنه من لغات تداخلت، أو تكون كل لفظة تستعمل بمعنى، ثم تستعار لشيء، فتكثر وتغلب، فتصير بمنزلة الأصل⁽²²⁾، وذهب آخرون إلى كثرة وروده، ورأوا أنه ضرب من ثراء اللغة، وتنوع معانيها، واتساعها في التعبير، وجعلوه وسيلة لحفظ اللغة، وضربوا له أمثلة كثيرة من شواهد العربية، وألف بعضهم كتباً تحدثوا فيها عن المشترك اللفظي، ومن هؤلاء الخليل، والأصمعي، وسيبويه، وأبو عبيدة، وأبو زيد الأنصاري، وابن فارس، والثعالبي، والمبرد⁽²³⁾، وقال السيوطي: "ومن الناس من أوجب وقوعه، قال: لأن المعاني غير متناهية، والألفاظ متناهية، فإذا وزع لزم الاشتراك⁽²⁴⁾، واعتبره صبحي الصالح في لغتنا لكثرتة خصيصة لها لا تنكر، وإلا فهو موجود في سائر اللغات⁽²⁵⁾، وفائدته تقوم على الكم لا على الكيف، إذ توسع من القيم التعبيرية، وتبسط من مداها اللفظي، بينما لا تسعفنا إلا بصورة موهمة عن كيفية وصولها إلينا معبرة عن عدد المعاني، بعد أن كانت في الأصل لا تعبر إلا عن معنى واحد⁽²⁶⁾."

. المبحث الثاني: الدلالة بين المعجم والسياق:

تعد نظرية السياق في الدراسات اللغوية الحديثة من أكثر النظريات اللغوية تعلقا بعلم الدلالة، وذلك لدورها الرئيس في تحديد معنى النص، واللفظ في العربية يتنازعه مستويان: المستوى المعجمي، والمستوى السياقي، ودلالة الكلمة تختلف بين هذين المستويين والفرق الأساس بين المعجم والسياق هو تعدد الأول وتحدد الثاني.

ويكاد اللغويون يتفقون على أن الكلمة تؤثر في معنى الجملة، ويحدث العكس، وهو ما يسمى بالمعنى السياقي، فيحدث أن نفهم كلمة ما، ونحن نقرأ على نحو ما، ثم نعدل معناها في ضوء السياق اللغوي التالي، وإذا كان لكلمة ما عدة معان غير سياقية، فإن السياق اللغوي هو الذي يحدد المعنى من بين تلك المعاني⁽²⁷⁾، وعلى إثر هذا أشار الباقلائي إلى أن انتقاء الدلالة

المعجمية للفظ ما، وإحلالها في الموضوع المناسب لها في السياق يساهم بقدر كبير في تماسك النص، ويعلل ذلك بأن إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى، بل تتمكن فيه، وتضرب بجرائها، وتراها في مظاهها، وتجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها، وتجدها الأخرى - لو وضعت موضعها - في محل نفار، ومرمى شراد، ونايبة عن استقرار⁽²⁸⁾.

ويوضح هذه الفكرة تمام حسان بقوله: "والمعجم جزء من اللغة لا من الكلام، ومحتوياته الكلمات التي هي مختزنة في ذهن المجتمع أو مقيدة في جلدتي المعجم، وهي صامته في كلتا الحالتين. وحين يتكلم الفرد يغترف من هذا المعين الصامت فيصير الكلمات ألفاظاً ويصوغها بحسب الأنظمة اللغوية، فالمتكلم إذن يحول الكلمات من وادي القوة إلى وادي الفعل. وبعد قليل انفصل القول في أن معنى الكلمة في المعجم متعدد ومحمّل، ولكن معنى اللفظ في السياق واحد لا يتعدد بسبب ما في السياق من قرائن تعين التحديد، وارتباط كل سياق بمقام معين يحدد في ضوء القرائن الحالية"⁽²⁹⁾، وبين العز بن عبد السلام أهمية السياق فقال: "السِّيَاق مرشدٌ إلى تبين الحملات وترجيح الاحتمالات وتثقير الواضحات وكل ذلك يعرف الاستعمال فكل صفة وقعت في سياق المَدْح كَأَنَّ مَدْحاً وكل صفة وقعت في سياق الدَّم كَأَنَّ ذمّاً فَمَا كَانَ مَدْحاً بِالْوَضْعِ فَوَقَعَ فِي سِيَاقِ الدَّمِ صَارَ ذمّاً واستهزاءً وتهكماً يعرف الاستعمال مثاله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [سورة الدخان: الآية: 49]، أي: الدليل المهان لوقوع ذلك في سياق الدَّم"⁽³⁰⁾، ونمثل لهذا القول أيضاً بما نقله السيوطي عن الأعرابي الذي سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاغْلُظُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية: 209]، قرأ فاعلموا أن الله غفور رحيم بدل (أن الله عزيز حكيم)، والصحيح أن الله عزيز حكيم، فأنكره، ولم يكن قرأ القرآن، وقال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل؛ لأنه إغراء عليه"⁽³¹⁾، فالأعرابي ربط بين الكلمة ومعناها داخل السياق الكلامي، وخلص الكلمة من دلالاتها المعجمية، وتمثل مقولة البلاغيين الشهيرة: لكل مقام مقال، ولكل كلمة مع صاحبها مقام، ويقودنا هذا إلى الحديث عن إسهامات المفسرين للقرآن الكريم الذي تلقوا النص القرآني،

واستوعبوا مراميه، ومقاصده من خلال معرفتهم بظروف التنزيل، ومناسباته، وسياق أحكامه، ونصوصه أثمرت هذه البيانات التي قيدها المصنفون في كتب الوجوه والنظائر، بل أن بعضهم ممن لم يقف على أثر منقول في تفسير ألفاظ بعينها استعان في تفسير مدلولاتها زيادة على ما استمدته من أهل اللغة بما اقتتنصه من السياق الذي وردت فيه هذه الألفاظ على نحو ما فعل الراغب الأصفهاني في كتابه مفردات القرآن⁽³²⁾.

إلا أنه لا يمكننا أن نغفل أن الألفاظ المعجمية هي اللبنة الأولى في بناء النص القرآني وسياقه، والدليل على ذلك أن ابن عباس رضي الله عنهما - وهو ترجمان القرآن - كان كثيرا ما يبحث عن معاني مفردات القرآن في كلام العرب، وكان الصحابة يسألونه: وهل تعرف العرب ذلك؟ فيستشهد على قوله بالشعر، إذ لو كان السياق هو الفيصل الأخير في تحديد دلالة الألفاظ لاعترض عليه من سمعه بأن السياق الذي وردت فيه في الشعر العربي مخالف لما وردت عليه في القرآن الكريم، وقد جعل الراغب الأصفهاني تناهي الألفاظ سببا في وجود المشترك، فقال: "الأصل في الألفاظ أن تكون مختلفة بحسب اختلاف المعاني، لكن ذلك لم يكن في الإمكان، إذا كانت المعاني بلا نهاية، والألفاظ مع اختلاف تركيبها ذات نهاية، وغير المتناهي لا يحويه المتناهي؛ فلم يكن بد من وقع المشترك"⁽³³⁾، ويؤدي تغليب السياق على المعجم إلى إلغاء الدلالة الموضوعية للألفاظ التي أنبتتها كتب المعاجم اللغوية، وفي ذلك هدم للغة العربية؛ لأن هذه اللغة قد حُفظت ودُوّنت في هذه المعاجم، ولا بد من أن تكون هناك للمفردات ثوابت دلالية حاسمة، لا يصح بحجة السياق التجاوز عليها؛ وإلا حدثت الفوضى وضاعت المعايير؛ لأن السياق واد فسيح مفتوح لا حدود له، لا يمكن ضبطه إلا بالرجوع إلى هذه الثوابت؛ فإذا ربطنا دلالة اللفظ به فحسب، تعددت دلالات كل لفظ بما لا يمكن التحكم على حصرها في عدد معين، ولاختلفت معانيها بين سياق وسياق، كما حصل هذا في كتب الوجوه، وفي كتب حروف المعاني⁽³⁴⁾.

فالمفردة القرآنية تلقي إشعاعا شاملا في مفردات السياق كله، من حيث لا يسدّ غيرها هذا المكان، وتنفرد بمكانها من حيث ملاءمة أقصى التأثير، وقد تكون الكلمة عادية في استعمالنا،

فإذا قرأناها في الآيات، وجدنا أنها تتجاوز كلّ تعابيرنا، متمكنة من موضعها بمنزلة اللبنة المطلوبة للبناء الكلّي⁽³⁵⁾.

فتوسع المعاجم في منحنا دلالات كثيرة للكلمة الواحدة، أو تعيينها لبعض المواضع التي تستعمل فيها تلك الدلالات ساهم في قدر كبير في تحديد المعنى وتوجيهه، بيد أن المعجم العربي لا يستطيع حصر جميع السياقات التي تقع فيها العبارة أو الكلمة، مما جعل القدماء يلجؤون إلى السياق لكي يفسروا ما اهتموا بتفسيره من اللغة، لاسيما تفسيرهم القرآن الكريم حيث وظفوا السياق توظيفا دقيقا في أثناء تفسيرهم للآيات فضلا عن إفادتهم من أسباب النزول⁽³⁶⁾.

. المبحث الثالث: أثر السياق في الترجيح بين دلالات المشترك اللفظي، مع ذكر بعض الأمثلة على ذلك:

تتطلب دراسة معاني الألفاظ القرآنية تحليلا للسياقات اللغوية وغير اللغوية، وذلك نظرا إلى أن اللفظ في القرآن له تفرده ودقته من حيث المعنى والدلالة والسياق، وقد أشار المفسرون إلى أهمية السياق في فهم دلالة النص القرآني وترجيحها، يقول ابن القيم: "السياق يرشد إلى تبين الجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقيد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم"⁽³⁷⁾.

وقد ربط السيوطي بين التفسير والسياق ربطا وثيقا فقال: "التفسير كشف معاني القرآن، وبيان المراد منه، سواء أكانت معاني لغوية أو شرعية بالوضع، أو بقرائن الأحوال، ومعونة المقام"⁽³⁸⁾، وعده رشيد رضا من أعظم القرائن التي يحتاج إليها مفسر القرآن الكريم، فقال: "إنّ أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سيق له من القول، واتفاقه مع جملة المعنى، واتلافه مع القصد الذي جاء به الكتاب جملة"⁽³⁹⁾.

ويعتمد المفسرون على قاعدة نفيسة من قواعد هذا الباب مفادها "أن أحسن طريق التفسير أن يُفسَّر القرآن بالقرآن"⁽⁴⁰⁾، ويعنون بها استحضر كل النص القرآني عند تفسير شيء منه، فمن أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أولاً من القرآن، فما أُجمل منه في مكان فقد فسّر في موضع

آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر⁽⁴¹⁾، ونحاول من خلال هذا المبحث دراسة بعض الأمثلة من وجوه المشترك اللفظي في القرآن الكريم اعتماداً على ما ورد في كتب الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، وما اختاره ورجحه بعض من أهل التفسير من هذه الوجوه في تفاسيرهم، مع عرض الأمثلة ومناقشتها:

. المثال الأول: كلمة (الهدى) في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية: 2]، ذكر مقاتل بن سليمان لكلمة (الهدى) سبعة عشر وجهاً، منها: الإسلام، والإيمان، والدعوة، والمعرفة، والرسول، والاسترجاع، والحجة، والتوحيد، والسنة، وغيرها⁽⁴²⁾، وقد حدد الواحدي في تفسير الوسيط معنى الهدى في هذه الآية فقال: "هدى للمتقين، معنى الهدى: البيان؛ لأنه قول به الضلالة في قوله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ [سورة البقرة: من الآية: 198]، أي: من قبل هداه"⁽⁴³⁾، فسياق الحديث في الآية الكريمة عن المتقين الذين أتوا بسبب الهداية وهو التقوى.

. المثال الثاني: كلمة (الخير) في قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [سورة الأحزاب: من الآية: 25]، وذكر مقاتل بن سليمان لكلمة (الخير) ثمانية أوجه، منها: المال، والإيمان، والإسلام، والأفضلية، والعافية، وغيرها⁽⁴⁴⁾، وقد نص البغوي على أن معنى الخير في هذه الآية هو الظفر في القتال⁽⁴⁵⁾، وقال النسفي: "ظفر أي: لم يظفروا بالمسلمين وسماه خيراً بزعمهم، وهو حال أي غير ظافرين"⁽⁴⁶⁾، فسياق الآية هنا حال كوزهم لم يصيبوا ما أرادوا من الغلبة، وسماه خيراً؛ لأن ذلك كان عندهم خيراً فجاء على استعمالهم وزعمهم⁽⁴⁷⁾.

. المثال الثالث: كلمة (السوء) في قوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءً مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى﴾ [سورة طه: الآية: 22]، وذكر موسى بن هارون لكلمة (السوء) أحد عشر وجهاً، منها: الشدة، والعقر، والزنا، والبرص، والعذاب، والشرك، والشتيم، وغيرها⁽⁴⁸⁾، وقال

القرطبي في تفسيره لكلمة السوء في هذه الآية، أي: من غير برص نورا ساطعا، يضىء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر وأشدُّ ضوءًا، وعن ابن عباسٍ وعَبْرِهِ: فَخَرَجَتْ نُورًا مُخَالِفَةً لِنُورِهِ⁽⁴⁹⁾، ورجح معنى البرص لورود الكلمة في سياق ذكر البياض بعد أن أمر الله تعالى موسى بإدخال يده في فتحة ثوبه، ثم إخراجها ليراها خرجت بيضاء من غير سوء.

. المثال الرابع: كلمة (الفتنة) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية: 23]، أوصل موسى بن هارون معاني كلمة (الفتنة) إلى عشرة وجوه، منها: الشرك، والكفر، والبلاء، والعذاب، والحرق، والقتل⁽⁵⁰⁾، وذكر ابن الجوزي أن من معاني كلمة (الفتنة) في هذه الآية المعدرة، أي: لم تكن معذرتهم، فالمنعني: اعتذروا بما هو مهلك لهم، وسبب لفضيحتهم⁽⁵¹⁾، ففي الآية إخبار من الله تعالى عن حال المشركين يوم القيامة حين يرون العذاب، وما هم فيه من هلكة وتخبط وحسرة، فيحاولون الاعتذار، وتقديم الأعدار عن اتخاذ الشركاء والأنداد من دون الله تعالى قصد الإفلات والخلاص من العقوبة التي ستحقق بهم.

. المثال الخامس: كلمة (قضى) في قوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَّمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [سورة فصلت: الآية: 12]، وذكر مقاتل بن سليمان لكلمة (قضى) عشرة أوجه، منها: وصى، وأخبر، وفرغ، وفعل، ووجب، وتم، وغيرها⁽⁵²⁾، وقال البيضاوي في تفسير كلمة (قضى) في هذه الآية إنها بمعنى (الخلق)، أي: فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فخلقهن خلقاً إبداعياً، وأتقن أمرهن⁽⁵³⁾، وقال أبو السعود: "خلقهنَّ خلقاً إبداعياً، وأتقنَ أمرهنَّ حسبما تقتضيه الحكمة"⁽⁵⁴⁾، وجاءت كلمة (قضى) بمعنى الخلق؛ لأن سياق الآيات التي قبل هذه الآية وبعدها فيها ما يدل على توبيخ المشركين وتقريرهم، فسياق الموقف هو الذي أوضح معنى الموضوع الذي أريد به التحدي، وذلك بذكر كمال قدرته وحكمته في الخلق من تقدير أقوات أهل الأرض وأرزاقهم ومعاشهم، وخلق السموات والأرض وإيجادهما على أطوار مختلفة متعاقبة، وتزيين السماء بالنجوم والكواكب المضيئة.

. المثال السادس: كلمة (الصلاح) في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [سورة البقرة: من الآية: 130]، وذكر أهل التفسير أن الصلاح في القرآن الكريم على عشرة أوجه، منها: الإيمان، والرفق، والإحسان، والطاعة، وأداء الأمانة، والنبوة، وغيرها⁽⁵⁵⁾، ومعناه في هذه الآية علو المنزلة، قال ابن عادل: "أي: اخترناه من سائر الخلق في الدنيا، وإنه في الآخرة عظيم المنزلة⁽⁵⁶⁾، وفرق الشعراوي بين سياق الحال في الدنيا وسياق الحال في الآخرة فقال: "اصطفاه في الدنيا بالمنهج وبأن جعله إماما وبالابتلاء... وكثير من الناس يظن أن ارتفاع مقامات بعضهم في أمور الدنيا هو اصطفاء من الله لهم بأن أعطاهم زخرف الحياة الدنيا ويكون هذا مبررا لأن يعتقدوا أن لهم منزلة عالية في الآخرة... نقول لا، فمنازل الدنيا لا علاقة لها بالآخرة.

. المثال السابع: كلمة (الحق) في قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِجٍ ﴾ [سورة ق: الآية: 05] وذكر الدامغاني اثني عشر وجها لكلمة (الحق) منها: القرآن، والصدق، والإسلام، والحشر، والنبوة، والمال، والحظ، والحاجة، وغيرها⁽⁵⁷⁾، والحق هنا هو القرآن⁽⁵⁸⁾، وقال ابن عاشور: "المراد بالحق هنا القرآن؛ لأن فعل التكذيب إذا عدي بالباء عدي إلى الخبر، وإذا عدي بنفسه كان لتكذيب المخبر... أي: أنهم بآذروا بالتكذيب دون تأمل ولا نظير فيما حواه من الحق..."⁽⁵⁹⁾، فالكلمة يتحدد معناها من خلال علاقاتها مع الكلمات الأخرى في النظم، وهذا ما يسمى بالسياق اللغوي، مع إمكانية حمل معناها على أكثر من معنى تحتمله.

. خاتمة:

يمكننا القول مما سبق عرضه إن لمفسري القرآن الكريم فضل السبق في الكشف عن أثر السياق وأهميته، وذلك من خلال بيانهم أن الأصل في فهم النص هو وضعه في سياق واحد، وكذلك في تفصيلهم بين الدلالة المعجمية للكلمة حال كونها مفردة، وبين كونها مقترنة بغيرها داخل النظم، وتبين أن إمعان النظر في السياق القرآني معين على فهم القرآن الكريم، وذلك من

خلال ربط الآية بما جاورها من الآيات قصد تخصيص المعنى في بعض وجوه الألفاظ القرآنية، وأما تحديد دلالة المشترك اللفظي فإنها تتمثل في علاقة اللفظ بغيره من الألفاظ داخل السياق، واستحضار السياق القرآني في تفسير القرآن الكريم هو من باب تفسير القرآن بالقرآن، وهو أعلى درجات التفسير، ويجلي الغموض، ويزيل الإبهام الذي قد يعتري الكلمة من المشترك اللفظي، كما لا يجوز صرف المشترك اللفظي عن سياقه القرآني الذي ورد فيه، بل ويجب حمل معاني المشترك اللفظي على الأوجه الملائمة للسياق.

الهوامش:

1. إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشاطبي، الموافقات، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط: 1، 1417 هـ. 1997 م. 266/4.
2. تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، وساعده ابنه محمد، دار عالم الكتب، الرياض، 1412 هـ. 340/13.
3. محمد بن مكرم بن علي جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط: 3، 1414 هـ. 166/10 (مادة سوق).
4. أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1979 م. 117/3.
5. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مطابع الأوقشت، القاهرة، ط: 3، 1985 م. 482/1.
6. ردة الله بن رده الطلحي، دلالة السياق، رسالة دكتوراه، منشورات جامعة أم القرى، السعودية، ط: 1، 1424 هـ. 50، و51.
7. عبد الرحمن حسن العارف، اتجاهات الدراسات اللسانية المعاصرة في مصر 1932 . 1985 م، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2013 م. 387 وما بعدها.
8. ردة الله بن رده الطلحي، دلالة السياق. 51.
9. الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار الرشيد، العراق، 293/5 (مادة شرك)، وأحمد ابن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، 265/3 (مادة شرك)، وإسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور

- عطّار، دار العلم للملايين، بيروت، ط:4، 1987م. 1593/4 مادة (شرك)، ولسان العرب: 448/10 (مادة شرك).
10. علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط: 1، 1421هـ - 2000م. 684/6.
11. عمرو بن عثمان بن قنبر الخارثي، الملقب سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: 3، 1408هـ - 1988م. 24/1.
12. محمد بن محمد الغزالي الطوسي، معيار العلم في فن المنطق، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، 1961م. 81.
13. عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، الزهر في علوم اللغة، شرح وتعليق: محمد جاد المولى بك، ومحمد أبي الفضل إبراهيم، وعلي محمد البحايي، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط: 3. 369/1.
14. بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ط: 1، 1957م. 102/1.
15. جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، نزهة الأعيان الناظر في علم الوجوه والنظائر، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 1، 1404هـ. 83.
16. علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة العربية، تحفة مصر، مصر، ط: 3، 2004م. 145.
17. رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: 6، 1999م. 326 وما بعدها (بتصرف)، وأرجع الدكتور علي عبد الواحد وافي وجوده إلى عاملين رئيسيين هما: اختلاف اللهجات العربية القديمة، والتطور الصوتي. ينظر: فقه اللغة. 147 وما بعدها.
18. محمد بن السري بن سهل النحوي ابن السراج، الاشتقاق، تحقيق: محمد صالح التكريتي، بغداد، 1973م، نقلا عن كتاب فصول في فقه العربية: 326 وما بعدها.
19. رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية. 326، وما بعدها (بتصرف).
20. عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، التحبير في علم التفسير، تحقيق: فتحي عبد القادر فريد، دار العلوم، المملكة العربية السعودية، ط: 1، 1982م، 214، وعلي بن عبد الكافي السبكي، وولده تاج الدين عبد الوهاب، الإبهام في شرح المنهاج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1404هـ، 250/1، وعلاء الدين علي بن محمد بن عباس البعلبي الدمشقي، المختصر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد

- بن حنبل، تحقيق: محمد مظهر بقا، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1400هـ. 40.
21. عبد الله بن جعفر بن محمد بن دُرُشْتَوَيْه ابن المرزبان، تصحيح الفصيح وشرحه، تحقيق: عبد الله الجبوري، بغداد، 1975م، 166، 167، وإميل بديع يعقوب، فقه اللغة العربية وخصائصها، دار العلم للملايين، بيروت، ط: 1، 1982م. 178.
22. علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، المخصص، دار الكتب العلمية، بيروت. 259/13.
23. صلاح الدين صالح حسنين، الدلالة والنحو، ط: 1، مكتبة الآداب، 99، وعلي عبد الواحد وافي، فقه اللغة. 146.
24. عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، المزهرة في علوم اللغة. 369/1.
25. صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، بيروت، ط: 3، 1388هـ. 301.
26. توفيق محمد شاهين، المشترك اللفظي نظرية وتطبيقاً، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: 1، 1980م. 38.
27. محمد علي الخولي، علم الدلالة، دار الفلاح، الأردن، 2001م. 69.
28. محمد بن الطيب أبو بكر الباقلائي، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط: 5، 1997م. 184.
29. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1994م. 316.
30. عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الإمام في بيان أدلة الأحكام، تحقيق: رضوان مختار بن غربية، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط: 1، 1407هـ - 1987م. 159/1 وما بعدها.
31. عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، التحبير في علم التيسير. 290.
32. عواطف كنوش، الدلالة السياقية عند اللغويين، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة البصرة، 1992م. 109.
33. الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، مقدمة جامع التفاسير، تحقيق: أحمد حسن فرحات، دار الدعوة، الكويت، 1984هـ. 29.
34. عبد الجبار فتحي زيدان، لا وجوه ولا نظائر في كتب الوجوه والنظائر، دار الجليل العربي، الموصل، ط: 1، 2016م. 23.

35. أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، دار المكتبي، دمشق، ط: 2، 1419هـ - 1999م. 296، و297.

36. فاضل السامرائي، معاني الأبنية في العربية، جامعة بغداد، 1980م. 142، و143.

37. محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، تحقيق: هاني الحاج، المكتبة التوفيقية، القاهرة، 2002م. 83/1.

38. عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، التحبير في علم التنسيير. 38.

39. محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دار المعرفة، بيروت، 2000م. 22/1.

40. بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن. 175/2.

41. عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل، دار نضضة مصر، ط: 2، 1989م. 200/3.

42. مقاتل بن سليمان البلخي، الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، تحقيق: حاتم صالح الضامن، مركز جمعة الماجد، دبي، ط: 1، 2006م. 20، وما بعدها.

43. علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري الشافعي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، وأحمد محمد صيرة، وأحمد عبد الغني الجمل، وعبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1415هـ - 1994م. 78/1.

44. مقاتل بن سليمان، الوجوه والنظائر. 57، وما بعدها.

45. الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة، ط: 4، 1417هـ - 1997م. 338/6.

46. عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، ط: 1، 1419هـ - 1998م. 26/3.

47. إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوقي المولى، روح البيان، دار الفكر، بيروت. 161/7.

48. هارون بن موسى العتكي الأزدي القارئ، الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، تحقيق: حاتم صالح الضامن، دائرة الآثار والتراث، بغداد، 1988م. 44، وما بعدها.

49. محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط: 2، 1384هـ - 1964م. 191/11.
50. موسى بن هارون، الوجوه والنظائر. 78، وما بعدها.
51. جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 1، 1422هـ. 16/2.
52. مقاتل بن سليمان، الوجوه والنظائر. 123، وما بعدها.
53. ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 1، 1418هـ. 68/5.
54. محمد بن محمد بن مصطفى أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت. 5/8.
55. ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر. 396.
56. سراج الدين عمر بن علي بن عادل الخنبلي الدمشقي النعماني، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1419هـ - 1998م. 498/2.
57. محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، الخواطر، مطابع أخبار اليوم، مصر، 1997م. 592/1.
58. محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر عبد السند حسن بمامة، دار هجر، ط: 1، 1422هـ - 2001م، 405/21، وشمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. 4/17.
59. محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية، تونس، 1984م. 284/26.